الدرس الثامن / حلية طالب العلم

1

مازلنا مع كلام الشيخ عن ترتيب الكتب التي يسير عليها طالب العلم في طريقه في طلب العلم

وفي التفسير: «تفسير ابن كثير» رحمه الله تعالى.

ذكر رحمه في التفسير "تفسير ابن كثير" وهو من أعظم كتب التفسير التي عُنيت بالأثر فهو يفسر القرآن بالقرآن وبالأحاديث السنة أو بالآثار الواردة وأعظم وأجمع منه طبعاً تفسير ابن جرير الطبري عليه رحمة الله تعالى

وفي أُصول التفسير: «المقدمة» لشيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله تعالى.

وهذا كتاب مانع ومهم لشيخ الإسلام ويحتاج الى فهم ودراية وله شروحات والحمد لله.

وفي السيرة النبوية: «مختصرها» للشيخ محمد بن عبدالوهّاب، وأصلُها لابن هشام، وفي «زاد المعاد» لابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم مختصرها للشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ثم أصلها وهو كتاب ابن هشام وهو من أوسع كتب السيرة وأشملها ثم زاد المعاد لابن القيم وهو ممتاز طبعاً بتحقيقه وتدقيقه واستخراجه للفوائد والنكات وقد حُقق الكتاب أيضاً والحمد لله.

وفي لسان العرب: العنايةُ بأشعارها؛ كـ«المعلَّقات السبع»، والقراءة في «القاموس» للفَيْروز آباديّ رحمه الله تعالى.

. . . وهكذا من مراحل الطلبِ في الفنونِ.

وذكر عليه رحمة الله في تقويم اللسان العربي العناية بأشعارهم وخصوصاً القديمة منها كـ "المعلقات السبع"، وهي ما علقها العرب قديماً في جوف الكعبة تعبيراً منهم على اشتهاره بفخامتها وجزالتها وتفوقها على غيرها من أشعار العرب وتفيد القارئ لها فوائد كثيرة

وكذلك القراءة في "القاموس" للفيروزآبادي وهو من أفضلها وأجمعها
وهذا طبعًا يذكره الشيخ رحمه الله فيما كانت تسير عليه الدروس في
منطقته وبلده، وقد تختلف في مناطق أخرى وتتنوع من مكان
إلى مكان.

وكانوا مع ذلك يأخُذون بِجَرْدِ المطولات؛ مثل «تاريخ ابن جرير»، وابن كثير، وتفسيريهما، ويُرَكِّزونَ على كُتُب شيخ الإسلام ابن تيميّة، وتلميذه ابن القيِّم رحمهما الله تعالى، وكتب أئمّة الدعوةِ وفتاويهم، لا سيّما مُحَرَّراتهم في الاعتقاد.

وهكـذا كانت الأوقاتُ عامرةً في الطلبِ، ومجالسِ العلمِ، فبعدَ صلاة الفجر إلى ارتفاع الضُّحى، ثم تكون القيلولةُ قُبَيْل صلاة الظهر، وفي أعقـابِ جميع الصلوات الخمسِ تُعْقَـدُ الـدروسُ، وكانوا في أدبٍ جَمٍّ وتقـديرٍ بعزّةِ نفسٍ من الطَّرفين على منهجِ السَّلَف الصالح رحمهم الله تعـالى، ولـذا أدركوا وصارَ منهم في عداد الأئمة في العلم جمعٌ غفيرٌ، والحمدُ لله رب العالمين.

فهل من عودةٍ إلى أصالةِ الطَّلَبِ في دراسة المُخْتَصراتِ المعتمدةِ،

ويذكر رحمه الله تعالى أن الطالب بعد مروره بالمراحل المتقدمة وترسخ
قدمه واشتداد عوده يبتدأون في جرد المطولات يعني الكتب الطويلة
كتاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير المسمى البداية والنهاية وهذه
الكتب الكبيرة لا تختص بفن معين وإنما فيها علوم كثيرة ففيها تراجم
وتواريخ وأحكام وغير ذلك وفيها فوائد جمة وغزيرة ولكن تحتاج
خبرة وبصيرة للسير فيها فلا ينبغي للمبتدئ أن يشرع فيها حتى
يستكمل أدوات السير فيها.

وذكر رحمه الله أنهم كانوا يعتنون بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وتلميذه فهي من الكتب المفيدة المحررة الناصرة للسنة والقامعة للبدعة

قال العثيمين رحمه الله: وكان الشيخ السعدي يحثنا على قراءتهما لأن فيهما من التحقيق والتحرير والتقعيد ما لا يوجد في غيره وقال رحمه الله أي العثيمين وتحس وأنت تقرأ بأن كلامهما ينبع من القلب ولهذا يؤثر في إرادة الإنسان.

ووصف رحمه الله الحال بأن الأوقات كانت عامرة في الطلب فكانوا يدرسون من بعد الفجر إلى ارتفاع الضحى ثم يقيلون والدروس عقيب الصلوات الخمس وذكر من صفتهم الأدب فيما بينهم وهذا من أعظم الأمور مركة فإن من تحل أدبه نبل في العلم وبلغ وكانوا هذا الأدب على منهج السلف لا غلو ولا إطراء ولا إجحاف وإنما هي الوسطية المطلوبة المحمودة ولذا كان من ثمرتها علماء أجلاء فهذه الطريقة الأصيلة هي البيئة الصالحة لتخرج العلماء وهي مفقودة اليوم

فتدرس في البدايات المختصرات المعتمدة لا على المذكرات لأنها ربما تكون غير متناسقة وغير محررة بخلاف المختصرات المعتمدة ولابد لذلك من حفظ هذه المتون حتى لا يضيع الطالب فلا حفظ ولا فهم.

ولذلك حذر الشيخ العثيمين من هؤلاء الذين يزهدون الطلبة في حفظ المتون ويقول رحمه الله: علم بلا حفظ يزول سريعا. ولو لم نحفظ لضعنا، ما نفعنا الله تعالى إلا بما حَفِظْنا من المتون. ولو لم نحفظ المتون لضاع علينا علمٌ كثيرٌ، فلا تغترَّ بمن يقول: الفهمَ الفهمَ هؤلاء لو سألتهم أو ناقشتهم لوجدتهم ضحلا ليس عندهم إلا علمٌ ضحل" كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا.

لا على المـذكّرات، وفي حِفْظِها لا الاعتماد على الفهم فَحَسْبُ، حتى ضاع الطُّلَّابُ فلا حِفْظَ ولا فَهْمَ!

وفي خُلُوِّ التَّلقين من الزَّغَل والشوائبِ والكَدَرِ، سَيْرٌ على مِنْهاج السَّلَف؟

والله المستعان.

وقوله: «ودون تحلو التلقين من الزغل والشوائب والأكدار» أي يكون العالم في تدريسه متواضعا صالح النية باذلا للعلم، ويكون المتعلم على سير الأدب والاحترام والتأسي بمعلمه متلمذا لربه متأدبا. ليتخلص من الإرادات الفاسدة وبذلك يكونوا على منهج السلف والله هو الموفق والمستعان فنسأله أن ييسر لنا ويوفقنا.

وقال الحافظُ عُثمان بن خُرَّزَاذَ (م سنة ٢٨٢هـ) رحمه الله تعالى[١]:

«يحتاجُ صاحبُ الحديثِ إلى خمس، فإنْ عُدِمَتْ واحدةٌ؛ فهي نَقْصٌ، يحتاجُ إلى عقلٍ جيّدٍ، ودينٍ، وضبطٍ، وحذاقةٍ بالصِّناعةِ، مع أمانةٍ تُعْرَفُ منه».

قلتُ: - أي الذهبيُّ -:

«الأمانةُ جزءٌ من الدين، والضبطُ داخل في الحِذْقِ، فالذي يَحْتاجُ إليه الحافظُ أن يكونَ: تقيّاً، ذكيّاً، نَحْويّاً، لُغَويّاً، زكيّاً، حَيِيّاً، سَلَفيّاً يكفيه أنْ يكتُبَ بيديه مئتي مُجَلَّد، ويُحَصِّلَ من الدواوين المعتبرةِ خمسَ مئةِ مجلدٍ، وأن لا يَفْتُرَ من طلبِ العلمِ إلى الممات بنيّةٍ خالصةٍ، وتواضُعٍ، وإلّا فلا يَتَعَنَّ» اهـ.

ثم كتب لنا ما نقله الذهبي عن ابن خرزاذ عن صاحب الحديث وما يحتاجه في سيره لطلب الحديث فيقال يحتاج إلى عقل جيد، ودين... علق الذهبي رحمه الله بأن الأمانة جزء من الدين والضبط داخل في الحذق فأرجعها الذهبي إلى ثلاثة: عقل جيد ودين وحذق وقال الذي يحتاج الحافظ أن يكون تقيا وأولا والتقوى رأس الأمور، ذكيا فلا يصلح مع العلم الأغبياء، وأنى لهم الاغتراف من معينه والقطف من ثماره هيهات هيهات.

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٣٨٠).

- "نحويًا لغويًا" لابد أن يكون لطالب الحديث وطالب العلم عمومًا عناية باللغة من حيث النحو والصرف والبلاغة وكتب القواميس ونحو ذلك
وأنت ترى أن هناك مباحث في الأصول وفي علوم القرآن وغيرها مباحث كلها لغوية.
- "زكيًا تقيًا" زكيًا هو الذي يزكي نفسه بفعل المأمورات
والتقي: هو الذي يحجز نفسه عن المنهيات
ونقل العثيمين عن شيخ الإسلام قوله عن أهل الكلام: "إنهم أوتوا فهومًا وما أوتوا علومًا، وأوتوا ذكاءً، وما أوتوا زكاءً".

- "حييًا" فإن الحياء يمنع صاحبه من كل ما يشينه
ونحترز هنا من الحياء المذموم الذي يمنع صاحبه من السؤال والتعلم ولهذا يقال فيه: "لا ينال العلم مستحيٍ ولا مستكبر"

- "سلفيًا" أي على طريقة السلف الصالح في الأدب والمعاملة والعقيدة والتعلم والتعليم.

- يكفيه أن يكتب بيديه مائتي مجلد، والمجلد على عهدهم قد يختلف عما نراه الآن
- "ويحصّل من الدواوين المعتبرة خمسمائة مجلد" هكذا ذكر الذهبي عليه رحمه الله تعالى
وذكر من صفاته أيضًا أنه لا يفتر عن طلب العلم إلى الممات، ثم لابد من السير في هذه المسيرة المباركة كما جاء عن أحمد بن حنبل: مع المحبرة إلى المقبرة والإنسان متى قال إني عالم فهو في شر
ويلزم النية الصالحة والتواضع فهذا أمر لابد منها للنجاة والفوز في الدنيا والآخرة ومن حرمها حُرم الوصول والنجاة في الآخرة
وقال رحمه الله: "وإلا فلا يتعنى" أي لا يتعب نفسه في الطلب إن لم يكن على ما ذكره من الصفات السابقة لكن تقول استعن بالله واجتهد وابذل قصارى جهدك والله ذو الفضل العظيم

٦

١٧ - تَلَقِّي العِلْمِ عن الأشياخِ :

الأَصْلُ في الطَّلَب أن يكونَ بطريق التَّلقين والتَّلَقِّي عن الأساتيذ، والمُشَافَنةِ للأشياخِ ، والأَخْذِ من أفواه الرجالِ لا من الصُّحُفِ وبطون الكتبِ، والأولُ من بابِ أخذ النَّسيبِ عن النسيبِ الناطقِ، وهو المُعَلِّمُ، أما الثاني عن الكتابِ، فهو جَمَادٌ، فأنّى له اتصالُ النَّسَبِ؟

وقد قيل: «مَنْ دَخَلَ في العلمِ وحدَه؛ خرج وحدَه»[١]؛ أي: مَنْ دَخَلَ في طلب العلم بلا شيخ؛ خَرَجَ منه بلا عِلْمٍ، إذ العلمُ صَنْعَةٌ، وكلُّ صَنْعَةٍ تحتاجُ إلى صانعٍ، فلا بُدَّ إذاً لتعلُّمِها من مُعَلِّمِها الحاذقِ.

وهـذا يكادُ يكونُ محلَّ إجماعٍ كلمةٍ من أهل العلم؛ إلّا من شَذَّ مثـل: علي بن رُضْوان المصري الطبيب (م سنة ٤٥٣هـ)، وقد رَدَّ عليه عُلماءُ عَصْرِهِ ومن بعدَهم.

قال الحافظُ الذهبيُّ رحمه الله تعالى في ترجمتِه له[٢]:

«ولم يكن له شَيْخٌ، بل اشتغلَ بالأخذِ عنَ الكُتُبِ، وصنّف كتاباً في تحصيلِ الصناعة من الكُتُبِ، وأنها أوفقُ من المُعَلِّمين، وهذا غَلَطٌ» اهـ.

وقد بَسَطَ الصَّفَديُّ في «الوافي» الردَّ عليه، وعنه الزَّبيدي في «شرح الإحياء» عـن عَدَدٍ من العُلَماء مُعَلِّلينَ له بعدّةِ عللٍ؛ منها ما قاله ابنُ بَطْلانَ في الردِّ عليه[٣]:

---

(١) «الجواهر والدرر» للسَّخاوي (١ / ٥٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ١٠٥).

وانظر: «شرح الإحياء» (١ / ٦٦)، و«بُغية الوعاة» (١ / ١٣١، ٢٨٦)، و«شذرات الذهب» (٥ / ١١)، و«الغُنْية» للقاضي عِياض (ص١٦ - ١٧).

(٣) «شرح الإحياء» (١ / ٦٦).

هذا الأمر الثالث الذي ذكره المؤلف رحمه الله في فصل كيفية الطلب والتلقي ألا وهو التلقي عن الأشياخ وهذا هو الأصل وهذا محل إجماع أو يكاد يكون محل إجماع لابد من شيخ تأخذ عنه العلم والأخذ من فم الشيخ وثني الركب عنده ومن أكبر فوائد التلقي كما ذكره ابن عثيمين رحمه الله:

١- اختصار الطريق: فبدلاً من أن تبحث كم قول في المسألة وما هنالك والدليل والراجح فإن الشيخ يختصر عليك كل هذا في لقمة سائغة فيذكر لك الأقوال والأدلة والراجح والتعليل.

٢- السرعة: فهذا الذي يذهب إلى الكتاب يردد العبارة مرة ومرتين وثلاث وأربع وخمس وربما لا يفهمها وربما فهمها خطئًا، لكن الذي يسأل شيخه أو يسمع منه فإنه يدرك بسرعة.

٣- الفائدة العظمى أن التلقي من أفواه المشايخ أخذ شيء عن شيء ناطق حي وهو يعلم وهذا نعم النسب ومع الرفعة والقدر، وأما الأخذ عن الكتاب فهذا جماد فأنى له اتصال النسب، كما قال رحمه الله.

- "وقيل من دخل العلم وحده" أي بدون شيخ "خرج وحده" أي خرج منه بلا علم واستدل بدليل عقلي فالعلم صنعة كالنجارة والحدادة ونحوها فهل هنالك أحد تعلم الصنعة إلا على يد صانع حاذق وهكذا العلم بالأولى.

- وما ذكرناه من لزوم التعلم على يد حاذق يكاد يكون محل إجماع ولم يشذ عن ذلك إلا علي بن رضوان المصري الطبيب (م ٤٥٣هـ) "أخذ العلم عن الكتب" بل صنف كتابًا في ذلك وأن هذه الطريقة هي أحسن وأفضل وقد رد العلماء قوله في عصره وفي غيره ومن هؤلاء ما قاله ابن بطلان ونقله الزبيدي في "شرح الإحياء" بقوله:

«السادسة: يُوجد في الكتابِ أشياءُ تَصُدُّ عن العلمِ، وهي معدومةٌ عند المُعَلِّمِ، وهي التصحيفُ العارِضُ من اشتباهِ الحروفِ مع عَدَمِ اللفظ، والغَلَطِ بزَوَغانِ البَصَرِ، وقلّةِ الخبرة بالإعرابِ، أو فسادِ الموجودِ

منه، وإصلاحِ الكتابِ، وكتابةِ ما لا يُقرأ، وقراءةِ ما لا يُكتب، ومذهبِ صاحبِ الكتاب، وسُقْمِ النَّسْخِ، ورداءة النقلِ، وإدماجِ القارئ مواضعَ المقاطع، وخَلْط مبادىء التعليم، وذكر ألفاظٍ مُصْطَلَحٍ عليها في تلك الصناعة، وألفاظٍ يونانية لم يُخرِجْها الناقلُ من اللغة؛ كالنُّوروس، فهذه كلُّها مُعَوِّقَةٌ عن العلم، وقد استراح المُتَعَلِّمُ من تكلُّفِها عند قراءتِهِ على المُعَلِّم، وإذا كان الأمرُ على هذه الصورةِ؛ فالقراءةُ على العلماءِ أجدى وأفضلُ من قراءة الإنسانِ لنفسِه، وهو ما أردنا بيانَه. . . قال الصَّفَدي: ولهذا قال العُلماءُ: لا تأخذ العلمَ من صَحَفي ولا من مُصْحَفي؛ يعني: لا تقرأ القُرآنَ على مَنْ قرأ من المُصحفِ ولا الحديثَ وغيرَه على من أخذَ ذلك من الصُّحُفِ. . . » اهـ.

هنا يذكر المؤلف رحمه الله ما ردّ به العلماء على من يدّعي أن العلم يؤخذ من الكتب ولا حاجة للأشياخ بداية: أما ترى كيف أخذ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أخذه بالتلقي من جبريل عليه السلام، بل كان يأتيه كل عام فيدارسه القرآن في رمضان مرة، فلما كان في العام الذي توفي فيه النبي صلى الله عليه وسلم دارسه القرآن مرتين

فقالوا في الرد عليهم: يوجد في الكتاب أشياء تصدّ عن العلم وهي معدومة عند المعلم وهي:

1 التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم النقط، وفي بعض النسخ مع عدم النقط. التصحيف هو خطأ في قراءة الكلمة في لفظها نتيجة تشابه الحروف. كالتاء والثاء والباء والنون.

خصوصًا بالأول كانوا في القديم لا يكتبون النقط

ولذا ما في النسخ الأخرى مع عدم النقط.

فالحاء تكتب مثل الخاء والراء مثل الزاي وهكذا

أما الخطأ من حيث الشكل أي في الرسم كالدال واللام والدال والراء والحروف كلها

مثل كلمة «بز» تكتب بدون نقط فلو قال قائل اشتريت بزًّا يصلح من قرأ بدون نقاط. فلو قرأت هكذا فهذا حرام

والبيع غير صحيح فلا بد من المقابضة.
وإن قرأت "بزًّا" وهو الحرير فالبيع صحيح

- يقول أحدهم: ما حلقت شعر عانتي منذ كذا وكذا لماذا قال لحديث "نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن حلق الذكر يوم الجمعة" هكذا قرأها والحديث "نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن حِلَق الذكر يوم الجمعة" وهكذا
وأحدهم يقول: ما استجمرت إلا وصليت الوتر لماذا؟ يا ترى لأنه فهم من حديث النبي صلى الله عليه وسلم "من استجمر فليوتر" وهكذا كثير
فمتى يسلم الطالب من كل هذا؟
الجواب: إذا تلقى من شيوخه.

- الغلط بزوغان البصر، وقلة الخبرة بالإعراب وهذا له أثر كبير في تغيير المعنى.
- أو فساد الموجود منه، قد يكون الكاتب أو الذي أخرج الكتاب بطبعة أخرى أو ما يسمى بالتحقيق تجد عنده غلطًا كثيرًا.
- مذهب صاحب الكتاب، هذا مهم جدًا لأن هذا يؤثر في اختياراته وعرضه لمحتوى كتابه مثل الزمخشري عالم لا يبارى في اللغة والبلاغة فإذا قرأت كتابه الكشاف طغى عليه مذهب الاعتزال إلا إن كنت عالمًا بمذهب أهل السنة والجماعة فمن قرأ وهو لا يدري أخذ السّم الذي في العسل فمات به.

إلى آخر ما ذكره المؤلف رحمه الله من الآفات التي تعرض لمن أخذ العلم عن الكتاب وهو يسلم من ذلك كله بأخذه عن الأشياخ.
ولذلك قال الصفدي: "لا تأخذ العلم عن صُحُفي ولا من مصحفي"

والدليلُ الماديُّ القائم على بُطلان نظرةِ ابن رُضْوان: أنّك ترى آلافَ التراجمِ والسِّيَرِ على اختلافِ الأزمانِ ومرِّ الأعصار وتنوُّع المعارف، مشحونةً بتسميةِ الشيوخِ والتلاميذِ ومستقلٌّ من ذلك ومستكثِرٌ، وانظر شذرةً من المكثرين عن الشيوخِ حتى بلغ بعضُهم الألوفَ كما في «العُزَّاب» من «الإسفار» لراقمه.

وكان أبو حَيّان محمد يوسُف الأندلُسي (م سنة ٧٤٥هـ)[(١)] إذا ذُكر

(١) مقدمة التحقيق لكتاب «الغُنية» للقاضي عِياض (ص١٦ - ١٧).